كيف كنت حلاقا؟

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

هل وجهى وجه حلاق ؟ ؟

هذا ما ظللت أسأل المرآة عنه أياماً بعد أن وقع لى ما سأقصه اليوم ، والمرآة لا تجيب ، وإن كنت لا أضن عليها بالالحاح وطول التحديق ، أو لعلها أجابت وأبيت أنا أن أسمع أو أصدق . وقد كففت عن مشاورة المرايا وأسلمت أمرى إلى الله ، وأمر وجهى إلى حسن أدب الذين يرونه

وصحيح أنى كنت — وما زلت أحياناً — أحلق ذقنى بيدى ، لأنى كنت فى عنفوان الاضطرام السياسى أخاف أن يوقعنى سوء الحظ فى يد حلاق سياسى لا يشايعنى على رأيى ، فيذبحنى ويروح يدعى أن قتلى كان خطأ لا عن عمد وسبق إصرار ، ولكنى بلوت من متاعب الحلاقة ما زهدنى فيها ، فرددت نفسى على مكروهها ولم أعد أبالى ما عسى أن يصنع برقبتى الحلاقون السياسيون . وللذبح أهون من تهمة الجنون . أى نعم . فقد شرعت مرة أحلق ذقنى ، ولكن حد الموسى كان كليلاً جداً ، فجعلت أحك به وأحك حتى صار وجهى — أو خدى — الأصفر كالطماطم الناضج ، ولم أعد أحتمل هذا الألم ، وفرغ ما فى صدرى من الهواء من طول التنفخ ومن كثرة قولى «أووففف !» فطويت الموسى ، وقلت إن هذا سلخ لا حلاقة ، ولست بشاة ، ثم إنى ما زلت حياً ، ولم أصنع قبيحاً أستحق عليه أن أسلخ وجهى بيدى

وارتديت ثيابى ووضعت منديلاً على جانب وجهى الذى سلخته وخرجت ألتمس دكان حلاق — أقرب دكان — وسرت على بركة الله ، وفى أملى أن يظن من يرانى أن أضراسى تؤجعنى . — واهتديت إلى دكان على كثب من البيت ، ولكن الحلاق كان مشغولاً ، فقعدت أنتظر ، وكفى على المنديل فوق خدى ، وفرغ الحلاق فدعانى فأسرعت إلى الكرسى ، ورفعت المنديل عن وجهى ، وجاء بالفوطة [1] ولف طرفها على عنق ثم ارتد بغتة ووقف يتأملنى وقد قطب وذوى ما بين عينيه ، فقلت :

« ماذا ؟ ؟ قل ولا تخف ! »

قال وهو يهز رأسه : « كلا . لا شىء ! »

قلت ملحاً : « بل تكلم . . فانى مستعد للإصغاء . . »

فتكلف الابتسام — أعنى أنه ابتسم بشفتيه دون عينيه — وراح يجمع أدوات الحلاقة ويعدها ويرصها ، وكان فى أثناء ذلك يخالسنى النظر ، فلم يبق عندى ريب فى أن الشك خالجه فى صحة عقلى ، وما أحسبه رأى قبلى رجلا يدخل عليه ونصف وجهه محلوق والنصف الآخر يطلب الموسى . وكأنما حار ، ماذا يصنع

(١) الفوطة عربية فصيحة وجمعها فوط

مهما يكن فيه من عنت ومن إرهاق ، وإنه ليفعل مغتبطاً راضياً هاشاً حتى ليكاد يلتمس السائليه الخيرَ التماساً ، وحتى ليكاد يصدق فيه قول الشاعر (كأنك تعطيه الذى أنت سائله) . وإنى لأعرف أنه كان يجرد صدراً من يومه فى السعى لحاجات الناس ابتغاء رضوان الله ، هذه واحدة . أما الثانية فشدة وفائه . ولقد عرفت صلة الرجل بالقصر ، ومبلغ ضعفه له . ولقد يتغير ولى الأمر يومئذ على رجل من صُدقائه أو ممن أسلفوا له يداً ، فتتناهشهم الأقلام من كل جانب ، اللهم إلا المؤيد ، فانه الذى لا يطلق مقالة السوء فيه أبداً ، وحسبك دليلاً فى هذا الباب شدة توافيه للمرحومين الشيخ محمد عبده ، وسعد باشا زغلول ، ورياض باشا ، وغيرهم كثير ، فان كان قد مس بعضهم كما مس رياض باشا عقب خطبته المشهورة ، فلقد كان عذره واضحاً ، وأى وطنى يطيق أن يسمع الأشادة بفضل المعتمد البريطانى على حساب كرامة أمير البلاد ! على أنه فيما مسه لقد كان به أرفق الكاتبين

* * *

فان زعمت بعد هذا أنه كانت فى الرجل هَنة أو كانت فيه هنات ، فمن ذا الذى سلم على العيوب كلها ، و (كفى المرءَ نُبلاً أن تعدّ مَعايبه) . وحسب الشيخ علىّ أنه كان بمجموعة مزاياه ومواهبه مفخرةً من مفاخر هذه البلاد التى لا يسخو بمثلها الزمان و (إن الزمان بمثله لبخيل)

رحمه الله رحمة واسعة ، وعزانا عنه نحن القادرية قدره ، أحسن العزاء ما؟

عبد العزيز البشرى

بالنصف الحليق ؟ أيجرى عليه الموسى ؟ أم يدعه ويُعنى بالنصف الثانى ؟ فقد وضع عليه حد الموسى ثم رفعه ووقف مترددا فقلت لأستحثه :

« تفضل . تفضل . . . إن هذا أيضاً يحتاج الى الموسى »

فألقى إلىّ نظرة سريعة ، وأكب على العمل بلا كلام ، والحلاقون كما يعرف القراء ، ثرثارون ، ولكن منظر وجهى كان له وقع عميق فى نفس هذا الرجل ، فنشف ريقه ، وعصب لسانه ، وانقطع أيضاً ، ولم يسوئنى هذا ، ولكنى فزعت إذ رأيت يده ترعش . فجعلت أدعو الله فى سرى أن يلطف بى ويرأف بعيالى ، ويرحم شبابى

واستجاب الله دعائى لأول مرة . . ولآخر مرة فيما أذكر . . وعلى أنه من يدرى ؟ لعل الرحمة كانت أن يذبحنى الحلاق — عفواً أو عمداً — فما تكون للمذبوح عناية بهذه الفروق

* * *

واتفق يوماً أنى نزلت فندقاً ، وكان فيه غيرى كثيرون كما لا حاجة بى أن أقول ، وبينهم أجنبى هرم له بنت جميلة ، وكان هذا الشيخ أحمق حاد الطبع ، وبنته على خلافه لينة العريكة سلسة الطباع ، ولو أنها كانت حمقاء مثله لشفع لها جمالها ، فكيف وهى تجمع الى حسن الوجه دماثة الخلق ورقة الحاشية ؟ وعرفتها لأنى اصطدمت بها فأوسعتها اعتذاراً فلم يضق بى عفوها ، وصرنا بعد ذلك كلما التقينا نتبادل التحية — بالرأس — وكنت ألقاها فى اليوم الواحد خمسين مرة ، فلا أدرى أينا الذى كان يتعقب صاحبه ؟ وفى المرة التاسعة والأربعين من اليوم الأول استطعت أن أفتح فمى وأحرك شفتى فقالت مستفسرة :

« نعم ؟ »

قلت : « لا شىء . أعنى أنى أردت أن أقول نهارك سعيد »

قالت : « آه ! صحيح ! نهارك سعيد ! »

قلت : « إ . . إ . . الجو اليوم جميل . . »

قالت وهى تضحك بلا داع : « إ . . . نعم . . . جـ . . . جميل . . . »

قلت : « لاخوف من المطر » ، وعضضت لسانى

قالت — وكفت عن الضحك — : « مطر ؟ فى أغسطس ؟ فى الاسكندرية ؟ »

فاضطربت وقلت : « إ . . . أعنى . . . أعنى أن الجو جميل »

فابتسمت ابتسامة خبيثة وقالت : « لقد قلتَ هذا من قبل . . . »

فقدت عليها — فى سرى — وقلت : « صحيح ! لقد نسيت ! فيا للغباوة ! لقد كنت أظنها جملة مبتكرة ! »

ولو كنا بقينا خمس دقائق بعد ذلك لحلت عقدة لسانى ، فقد عاودتنى الثقة بنفسى ، وأيقنت أن العقدة ستحل بعد أن نطقت بآخر كلمة ، ولكن أباها — لعنة الله عليه — ! أبى إلا أن يقبل فى هذه اللحظة ، وكان وجهها اليه ، وظهرى له ، فرأته قبلى وقالت :

« هذا أبى » ، وأشارت اليه

فدرت على عقبى بسرعة ، ولم أكد أبصر وجهه حتى استولى علىّ الرعب ، فهربت بلا كلام ولا استئذان ، ولم يكن ثم باب آخر فى هذه الناحية أخرج منه ، ولم أجد أمامى غير « صالون الحلاقة » ، فدخلته وكان — كما شاء الحظ — خالياً . وشعرت أن بى حاجة الى منعش بعد الذى أصابنى من منظر هذا الشيخ الشرس ، فتناولت قطرات من « الكولونيا » وشممتها ومسحت بها وجهى ، وإذا بالرجل يصيح بى :

« ماذا تعنى بهذا التلكؤ ؟ لقد بعثت اليك منذ نصف ساعة لتوافينى فى غرفتى وتحلق لى ذقنى ! عجل يابليد ! »

وكان من الواجب أن أذهل ، أو أبهت ، أو احتج ، ولكن كرهى له أيقظ حواسى جميعاً ، فقلت هذه فرصة سنحت للانتقام منه ، وأسرعت فقلت :

« حالاً . . حالاً . . كم رقم الغرفة من فضلك ؟ »

قال : « ١٥ . . . »

ومضى عنى ، فجمعت أدوات الحلاقة ووضعتها فى حقيبة صغيرة رأيتها هناك فى ركن ، وخرجت ، فاذا بالفتاه تدنو منى وتقول :

« ماذا تنوى أن تصنع ؟ »

فقلت : « أحلق ذقن أبيك »

قالت : « حاذر . . . هذه مجازفة »

قلت : « أعرف ذلك وأشكرك ، ولكن ألا تثقين بى ؟ »

قالت : « إنك لاتعرف أبي »

قلت . « ثق انك أنت أيضاً لن تعودى تعرفينه ! »

قالت : « دع المزاح . . . لم أكن أظن أنك طائش الى هذا الحد »

قلت : تعالى . . . وانظرى »

وتركتها وقصدت الى السلم ، وهى ورائى

* * *

ولم تكن الفتاة مبالغة حين حذرتنى وأنذرتنى ، فان أباها شىء فظيع ، وقد أسمعنى فى خمس دقائق من ألفاظ التعنيف والشتم والقذف والطعن والقدح مالم أكن أظن أنه يوجد فى لغات العالم مجتمعة بله فى لغتنا العامية التى يعرف أقلها ويجهل أكثرها ، ولكنى أنا أيضاً لم أكن مبالغاً حين أكدت للفتاة أنها لن تعرف أباها بعد أن أفرغ من حلاقة ذقنه . فقد أرقت نصف رطل على الأقل من دمه الثقيل ، ولم أكد أضع الموسى على خده حتى صرخ وصاح بى :

« أنت جزار . . . لا حلاق »

فقلت « عفواً سيدى . إن حد الموسى لم يلمس جلدك »

قال « لم يلمس جلدى ! تقول لم يلمس جلدى يا أعمى ! لقد قطع لحمى ! »

فطمأنته ، فهرنى ، وزجرنى عن الكلام ، فأجريت الموسى ، وخرجت بقطعة ثانية من لحمه القديم ، وماذا أصنع إذا كان جلد وجهه عميق الأخاديد ؟ أهذا ذنبى أم ذنبه ؟ وقلت له :

« يحسن بك ياسيدى أن تجىء فى كل صباح بأربع بيضات أو خمس فتكسرها وتصبها فى وعاء وتمزجها بمسحوق الثلج — يعنى بودرة الثلج — وتعجن هذا بذاك ، وتدهن به وجهك ، وتظل نصف ساعة لا تفتح فمك بكلام ما ، ثم تغسل وجهك . فاذا واظبت على ذلك شهراً كاملا عادت الى وجهك نعومته باذن الله

فصاح بى « اخرس . أقول لك اخرس »

فقلت « طيب خرست » وواصلت انتقامى . وكنت قد بلغت عنقه ، فجعلت أنظر الى الفتاة نظرة لا تخفى دلالتها ، نظرة طبها الحقد والتصميم على القتل عمداً ومع سبق الأصرار ، ورفعت يدى بالموسى نحو ذراع ، وهممت أن أهوى بها على رقبته ، وإذا بالفتاة تصرخ ، فارتددت مذهولا ، ووثب هو عن الكرسى وذهب يمدو اليها ، وسألها « مالك ؟ »

فلم تجبه ، وجعلت تشير إلىّ وتهيب بى أن « إخرج . اخرج . . . »

فهززت رأسى آسفاً ، فقد ذهبت الفرصة الى حيث لا يمكن أن تعود ، فسألها هو :

« يخرج ؟ يخرج كيف ؟ ويدعنى هكذا » وأشار الى خده الآخر الذى لم يحلق

فقالت « إنه ليس بحلاق ! »

قال « إيه ؟ ليس بحلاق ! »

ودار فالتفت إلىّ ، فرآنى أضحك ، فطار عقله ، وتحرك يريد أن يهجم علىّ ، فتذكرت ما يفعل الذين يقاتلون الثيران فى أسبانيا ، فخطفت الفوطة وألقيتها على وجهه ، وفررت

* * *

وقالت لى الفتاة بعد ذلك :

« لم أكن أعلم أنك شرير »

قلت « شرير ؟ ؟ »

قالت « نعم . . كدت تقتله وتقتل نفسك »

قلت « أينا كنت تبكين عليه ؟ »

قالت « لا تكن خبيثا . . . إنه أبى »

قلت « لا أصدق . . . »

قالت « من فضلك . . . لا تذكره بسوء أمامى »

قلت « اعترفى إذاً أنه . . . »

قالت « لو كنت أعتقد أنك ستقتصر على جرح أو جرحين . . . »

قلت « وهل كنت تتوهمين أنى يمكن أن أذبحه ؟ »

قالت « لقد خفت والله . . . »

قلت « يابلهاء . . . لأجل عين تكرم ألف . . . »

وصرنا صديقين ، ولكن أباها لا يرانى — الى اليوم — إلا ارتد راجعاً ، وحسناً يفعل . . .

ابراهيم عبد القادر المازنى